Sultana
Ghalib Halasa

انتهينا من الطعام وأكلنا العنب . ثم شربنا الشاي . فجأة قالت أمي : لماذا لا تسافر الى عمان ؟

قلت :

ـ يعني ؟

قالت :

ـ رفّه عن نفسك اسبوع ، عشر تيام ، وتعاود .

لقد اخفتها البارحة وأنا أجلس على رأس الفراش .

ـ ٣ ـ

هل يمكن ان اتحدث عن آمنة بموضوعية ؟ لقد أصبحت مختلطة باسطورتها ، بحيث يستحيل فصل العناصر الواقعية عن الأسطورية . حتى في رؤيتي لها لا أستطيع أن أتأملها الا عبر هالة مجدها . الا يمكن ان نعتبر الأسطورة شكلاً يبلوّر شعوراً جماعياً تجاه ظاهرة ما ، في مرحلة معينة من مراحل التطور ؟ اذا أجبنا بالايجاب ، تصبح اسطورة آمنة جزءاً منها . حتى ما يقوله رجل خرِف مثل زعيِّل السالم[1] يحتفظ بقيمة ما .

---

(١) اعتقد ان زعيِّل كان مصاباً بالخرف منذ ولادته . رجل قصير جداً ، يكاد يكون قزماً ، ومضحك جداً . وصفه شاعر القرية أبو نزّال :

شديت شدادي ع ابو الحصنان ومن العطش وامترغ بيا
يا طول زعيِّل اثلثشبار والا دجاجة قبرصية

(١) **ملحوظة** : ابو الحصنان الثعلب . ثلثشبار : ثلاثة أشبار . .

ذهب زعيِّل مرة الى عمان فرأى حذاء أحمر ، له عنق يصل الى الركبة ، وقد وضعت فيه ابازيم وشناكل معدنية مطلية بلون ذهبي . فاشتراها بخمسين دونماً من الأرض . وأصبحت (دزمة) زعيِّل حديث القرية ونكتتها لشهور عدة ، وخاصة انه ، قبل ذلك ، نادراً ما كان يلبس حذاء . وقد حاول تقليد الشيوخ الذين يملكون الأراضي الواسعة ، والأغنام التي لا حصر لها ، فاشترى فرساً أصيلاً ، وأقام الولائم بسفهٍ ، فأفلس خلال سنين قليلة ، وأصبح شبه متسوّل . اذكر =

Sultana
Ghalib Halasa

آمنة حلم القرية الرومانسي المعلن ، وسلطانة حلم القرية الشبق السرّي ، الملعون ، الفاجع ، الممنوح والمستحيل معاً . . . على كل حال فلنؤجل الحديث عنها ، فهي الروح السرية ، الدم الحقيقي لكل ما يجري هنا من أحداث .

لنعد الى آمنة . لم تكن بيضاء كقرص الجبنة ، ولا حمراء الخدين ، تلك الحمرة التي يصفها زعيّل بانها برّاقة . زعيّل كاذب حتى في تحديد لونها . كانت ، كما كانت تصفها أمي ، وكما أتذكرها أخضرانية . وهذا اللون يعني سمرة خفيفة مع بياض يبدو وكأنه يجاهد من عمق الجسد ان يصعد ويفرض نفسه ، فلا ينجح تماماً كانت تضيء ، دون ان تكون برّاقة .

كيف أصفها ؟ عليك أن تراها . ولكن ذلك لن يضيف شيئاً . لم تكن لتفاجأك ، مثل سلطانة التي ، منذ الوهلة الأولى ، تلسعك في الصميم ، بل كانت آمنة تنفتح أمامك ببطء . الوهلة الأولى : قامة طويلة ، عنق طويل دون افراط ، ووجه يوحي بالارهاق . وجه يبدو وكأن صاحبته انتهت من البكاء لتوها . عينان مسبلتا الجفنين ، وأنف حسّاس ، وشفتان منفصلتان عن سياق ذلك الارهاق . تحس بها امرأة جميلة ، ولكن الارهاق ، أو سوء التغذية ، أو عدم العناية جعل جمالها يذوي . تشعر ان عليها أن تعتني بنفسها أكثر من ذلك ، وفي داخلك تبدأ في اقتراح بعض التعديلات . تنفتح العينان ـ تبغتك سعتهما غير المتوقعة ـ تنظران اليك بحزن وحياء . على نحو ما تشعر أن العينين ينظران الى الداخل ، داخلها ، رغم انها تصغي بأدب وتركيز . أنت لا تعلم ـ ولكن ذلك حدث بالفعل ـ انك وقعت في مصيدة . تعاد صياغتها انطلاقاً من العينين ، منهما أيضاً تشعر بطاقة هائلة مختزنة ، وتحت السيطرة . هنا يبدو الأنف كمعجزة ، واليدان المستطيلتان ، بأصابع طويلة ، محمرّة قليلاً ، تحب ان تمسكها . ليست أصابع رقيقة ، ولكن النحت الدقيق لليد والأصابع يظلان في الذاكرة ، تعتقد ، فيما بعد ، انه رفائيل رسمها في لوحة العذراء ، امسك بالطابع الارستقراطي لليد ، ولكنه عجز عن الامساك بتلك الطاقة العارمة ، الموضوعة تحت السيطرة ،

Sultana
Ghalib Halasa

وخاصة في اليدين . عليك ان ترى هاتين اليدين وهي تتكلم ، أو تأكل ، أو تعتني ببيتها .

كنت أدعوها أمي لأنها أرضعتني فترة ، لا أعرف طولها ، عندما مرضت أمي بالحمى . ولكن هذا سيأتي أوان الحديث عنه . اتحدث الآن عن اليدين . اتذكر . كنت نائماً في بيتها . شعرت بيد تلمس وجهي . تمر عليه برفق . بدا ذلك جزءاً من حلم له علاقة بالبحر ، ببستان غريب كله ورود ينساب على شكل مسطحات مستطيلة ، تتوالى هبوطاً نحو البحر . لم يكن البحر اليومي ولا الورود التي يمكن ان نراها كل يوم . . . كان ذلك كله خاصاً جداً ، وحميماً جداً . . . الأغرب من ذلك أنه يبدو ، في الوقت ذاته ، كذكرى قديمة جداً ، كواقع بالفعل حدث في الماضي ، وأعود اليه . من حلم كهذا تنشأ صورة الجنة . وأنا ، الآن ، افسّره بأنه استعادة لذكرى مخزونة في جزء ما من الجهاز العصبي ، مختزنة منذ عشرات الملايين من السنين ، عندما كنا نعيش كأسماك من نوع ما في البحر . لأن الماء بدا أليفاً بشكل مذهل ، أليفاً كأنه مسكن دائم . وأعلم ، الآن ، ان الحلم بدأ منذ ان لمست أصابعها وجهي . فرح خفي وعميق أنتقل الي من خلال اليد ، على شكل صور .

أي كنز من الحنان والمودة تمتلكه آمنة ، وتنقله من خلال الأصابع !

وعندما فتحت عيني أدركت لماذا يصفها زعيّل بانها بيضاء وذات خدين أحمرين برّاقين . كانت تضيء . وجهها كان قريباً مضيئاً . وأدركت ـ ادرك الآن ـ معنى ذلك البستان الغريب . كان عطرها يشيع في الجو ، يحيطني ، ويسكرني .

هل كانت تتعطر ؟

لست أدري . ولكن شاعراً معروفاً ينتمي الى احدى القبائل الشرسة ، التي تقيم مضاربها في الشرق البعيد رآها مقبلة تواجهها للحظات ، واختفت . كان له حسّ مميز بعناصر الجمال في المرأة . وقال شعراً :

عيون عثلوق نطحني مع السوق يجر ثياب الغي مدموج الالعاس